توظيف الأسطورة في شعر محمود درويش

سيد مزمل رشيد *

مفهوم الأسطورة: قبل الحديث عن توظيف الأسطورة في شعر محمود درويش لا بد من تحديد مفهوم الأسطورة وقد تعددت تعريفات الأسطورة عند الأروبين الذين كانوا أسبق من العرب في الانكباب علي دراستها والبحث فيها.

الأسطورة لغة: ورد في "لسان العرب" في مادة (س ط ر) وقال الزجاج في قوله تعالي "وقالو أساطير الأولين" خبر لابتداء محذوف، والمعني الذي جاء به أساطير الأولين معناه سطّر الأولون، وواحد الأساطير اسطورة، كما قالوا أحدوثة وأحاديث وقال كذلك" الأساطير: أباطيل والأساطير: أحاديث لا نظام لها واحدتها إسطار وإسطارة بالكسر، واُسطورة وأسطيرة وأسطورة بالضم.[١]

ويري بعض العلماء المعاصرين من مشارقة ومستشرقين أن لفظ " أسطورة "بالدلالة ألتي تعرفها يونانى الأصل دخل العربية لاحتكاك العرب بالاغريق، مأخوذة من (istoria) بمعنى حكاية ثم ارتبط معنى الأسطورة بالحكى والسرد والخرافة.[٢]

الأسطورة اصطلاحا :عرّف كامبيل(Campell joseph) الأسطورة في كتابه"البطل ذو ألف وجه" "بأنّها الفتحة السحرية

* باحث الدكتوراه في قسم اللغة العربية، بجامعة كشمير.

ألتى تنصب منها طاقات الكون ألتى لا تنفذ الى مظاهر الحضـــارية الانسانية.فألاديان والفلسفات والفنون والأشكال الاجتماعيـــة عنـــد الانسان البدائ والتاريخى والاكتشافات الكبرى فى العالم بالصناعة وحتى فى الأحلام ألتى تتناثر فى النوم كلهـــا تنبـــع مـــن الـــدائرة السحرية الأساسية للاسطورة.[٣]

ونجد تعريفا يلم بكافة جوانب الكلمة ومعانيها فـــى أحـــدث معـــاجم اللغة الفرنسية وأشملها(LE ROBERT) التى نقلهـــا محمـــد حســـين أبوالحسن فى كتابه "الشكل الروائ والتراث".

"انّ الأسطورة (قصة خرافية عادة ما يكون من اصل شعبى،تصور كائنات تجسد فى شكل رمزى. قوى الطبيعة او بعضا من جوانـــب عبقرية البشر والبشر ومصيرهم) وتتخذ الأساطير أهمية قصـــوى فى الديانات البشرية والأداب الشعبية ومنها ما هو دينـــي ودنيـــوى فهناك على سبيل المثال أساطير مسيحية وأساطير وثنية "[٤]

الأسطورة فى الشعرالعربى الحـــديث :اســـتخدام الشـــعر العربـــي للأسطورة فيرجع الى فترة مبكرة فى هذ القرن فقد استعمل جبران خليل جبران اسطورة أدونيس وعشتروت فـــى لقـــاء فـــي دمعـــة وابتسامة ١٩١٤ استخدم نصيب عريضة أسطورة ارم ذات العمـــاد فى قصيدته نارار١٩٢٥م وأهتم العقاد وأبو شادي كثيرا بالأساطير وفى ســـنة ١٩٣٦ أصـــدر شـــفيق المعلـــوف قصـــيدته الطويلـــة عبقر،وحشد فيها عدد كبيرا من الأساطير العربية. وكذلك فعل على محمد طه فى أرواح وأشباح ١٩٤٢. [٥]

لكن الملاحظ أن هؤلاء الشعراء أخـذوا الأسـاطير بأعتبارهـا ميراثا ثقافيا عن الأقدمين فاستعملوه استعمال قصصيا ونثروه أحيانا داخل أعمالهم الشعرية دون مراعاة للمحتوى الوجـدانى الانفعـالى الكامن فى هذه الأساطير.

أما الأساطير كمعنى وكمنهج بناء لخلق عـالم تسـيطر عليـه الشحنات العاطفية الشعورية،فلم يعرفها الشـاعر العربـي الا بعـد الخمسينيات من هذ القرن وبظهور جيل أدونيس وخليـل حـاوى وجبرا ابراهيم جبرا ويوسف الخال وشوقى أبو شقرا وبدر السياب عصام محفوظ وصلاح عبد الصبور.

وتقول الدكتور سلمى الخضراء الجيوشى بصدد حـديثها عـن الأسطورة فى الشعر العربى الحديث "أصبحت اللحضة الحضـارية مناسبة فى أواسـط الخمسـينيات لاسـتعمال الشـعراء العـرب للأسطورة،فعمدوا اليها ليعبرواعن قحط الحياة العربية بعـدة نكبـة ١٩٤٨ وعن الشوق العميق فى لهفته وأساه الى العودة الى نبض الحياة والكرامة، وقد وجدوا فى استعمال اليوت للمعنى المنضـوى فى أسطورة الخصب فى قصيدته "الأرض الخراب" تعبيرا عن حب عظيم وتأكيدا على قدرة الانسان على التضحية والعطاء.وكان أكثر ما جذبهم فكرة الموت القربانى الذى يؤدى الى الولادة الجديدة.[٦]

وهكذا تحولت الأسطورة فى الشعر العربى الجديد من مجـرد قصة ميثولوجية الى أن تكون جمعا بـين طوائـف مـن الرمـوز المتجاوبة،يحسبهم فيها الانسان وجهة شاملة فى الحقيقة الواقعة.[٧]

وامتلأ الشعر العربى الجديد بالأساطير العربية والاغريقية والبابلية والشرقية من خلال قيام الشعراء بمحاولة استكشاف أبعاد نفسية خاصة للأسطورة المستخدمة فى واقع تجربتهم الشعرية. فالتجربة انما تتعامل مع هذه الأساطير "تعاملا شعريا على مستوى الرمز فتستغل فيها خاصة الامتلاء بالمغزى أو بأكثر من مغزى"[٨]

وفرض المنهج الأسطورى نفسه على الصورة الشعرية الجديدة،فأصبحنا نرى صورا شعرية تستخدم المنهج الأسطورى،ويسيطر عليها جو البناء الأسطورى بلا منطقه ورموزه الممتلئة بالانفعالات.[٩]

الأسطورة عند محمود درويش : يعتبر محمود درويش من أهم الشعراء الفلسطينين ألذين ارتبط اسمهم بشعر المقاومة وهو من ابرز الشعراء الذين عنوا بتوظيف الأسطورة فى شعرهم كما نرى أن شعره مليئا بالأسطورة المختلفة وتعد علاقة محمود درويش بلأساطير قديمة ففى ديوانه "عاشق من فلسطين " 1966 قصائد تدل على عمق التجربة الأسطورية فى شعره منذ مطالع حياته الشعرية يقول محمد شاهين فى كتابه "الأدب والأسطورة " عن مفهوم الأسطورة عند شاعرنا محمود درويش.

"والأسطورة عند محمود درويش هى وعى أسطوري mythic، اى انها احساس فيه المناقضات بما فيه من مضامين وأزمنة وأمكنة وما ان تصل نقطة التجمع فهذه حتى تسير فى دهليز الابداع. والا تخرج منه الا قد اكتسبت ايقا جديدا فى مضمونه وزمانه ومكانه "[١٠]

وتتنوع الأسطورة فى شعر محمود درويش فيوظف الأسطورة اليونانية والأسطورة البابلية والأسطورة الكنعانية والأسطورة الفرعونية وقد استخدم شاعرنا الفلسطينى محمود درويش لأنه يريد ان يتكلم ويخاطب الشعب الفلسطينى خاصة والعالم كله عامة من وراءها ونتكلم على كل واحد منها كيف استخدم ساعرنا من الأسطور المزكورة.

الأسطورة اليونانية : وظف محمود درويش من الأسطورة اليونانية شخصية " أودسيوس" ألتى برزت فى الأوديسا. وترتكز على مخاطرات أودسيوس ومعامرته فى رحلته الى وطنه، وتعرف أفراد أسرته عليه بعد عشر سنين على غيابه. يصف أودسيوس فى الأنشودة التاسعة معركته مع الأمواج والأعاصير عند عودته الى وطنه فيقول:

"وعندئذ أثار زوس جامع السحب الريح الشمالية ضد سفننا فهاجت بعاصفة عجيبة وأخفى البر والبحر معا بالغمام وتمزقت أوصال أشرعتها اربا من جزاء عنف الريح ولذلك أنزلنا الأشرعة وخزّناها بعيدا خشية الموت. ورحنا نجدف بالسفن فى سرعة بالغة صوب البر، هناك استغرقنا فى الرقاد طيلة ليلتين ويومين. وقد ذابت قلوبنا تعباً وأسى" [١١]

وقد اسقط درويش الماضى على الحاضر. ليعبر عن رحلة أودسيوس الفلسطينى وما لاقاه من ظروف صعبة فى الشتات فمن خلال هذه الأسطورة يجسد درويش واقع الفلسطين فى رحلته ولجوئه ومخاطر هذه الرحلة أو الهجرة أو الشتات.[١٢] وألتى كانت

رغم عنه فرحل تاركا أرضه وبيته وفردوسه، ويعبـــر الفلســـطينى عن مأساته تلك بقولته من ليس له وطن ليس له قبر يقول درويـــش فى قصيدة " ابى "

كان أوديس فارسا
كان فى البيت أرغفة
ونبيذ، وأعطية
وخيول، وأحذية
وأبى قال مرة
حين صلى على حجر
غض طرفا عن القمر
وأحذر البحر، والسفر [١٣]

ويوظف درويش أسطورة عويس " بطل الأوديسة " الذى ضل طريق عودته الى وطنه وهو فى عرض البحر، ويرى درويش فى الفلسطينيين العائدين من الشتات " تليماخ " الذى انتظر عودة ابيه، وحاول البحث عنه. وبعد أن طال غيابه بعد سقوط طراودة فرحلة عوليس هى رحلة الفلسطينى حيث واجه فى رحلته عـــن الـــوطن كثيرا من الأهوال والمخاطر[١٤]

وكذلك الفلسطينى، ففي سبيل عودته الى أرض الوطن، ويواجه كثيرا من الأخطار والمعاناة وكذلك " ابن عـــوليس" المتمثـــل فـــى تليماخ الفلسطينى الذى ينتظر أباه المشرد يقول دوديش فى قصيدة " فى انتظار العائدين "

"اكواخ أ حبابى على صدر الرمال

وأنا مع الأمطار ساهر
وأنا ابن عوليس الذى انتظر البريد من الشمال
ناداه بحار، ولكن لم يسافر
لجم المراكب. وانتحى اعلى الجبال
يا صخرة صلى عليها والدي لتصون ثائر"[١٥]

الأسطورة العربية: يوظف شاعرنا محمود درويش أسطورة "العنقاء" لأنّ فيها بعثا أسطوريا. فهو يشير من خلالها الى البعث الواقعى الذى يحلم به و"العنقاء" طائر أسطورى لا وجود له. يقول خالد عبدالروٗف الجبر فى مقالة " رمز العنقاء فى شعر محمود درويش.

"العنقاء طائر خرافى كثر توظيفه فى الشعر الفلسطينى. وهو يرمز الى الانبعاث من جديد. وتفول الأسطورة انّ هذ الطائر ينبعث بعد احتراقه مثله فى ذلك مثل طائر الفينيق. ويضارع طائر العنقاء طائر السيمرغ عند الفرس ويطلق على هذ الطائر فى التراث العربى اسم " عنقاء مغرب" [١٦]

وقد استخدم محمود درويش أسطورة العنقاء فى اشارة الى الخصب والبعث والتجدد بعد الاستشهاد أو النفى، استخدمه تحديدا بعد خروجه من بيروت، يسقط كل ذلك على مفهوم الثورة والانتفاضة والحرية والتطلع والميلاد والتغير، يقول درويش قصيدة " سرحان يشرب القهوة فى الكافتيريا "

"كل يوم نموت. وتحترق الخطوات وتولد عنقاء
ناقصة، ثم نحيا لنقتل ثانية

يا بلادى. نجيئك أسرى وقتلى"[١٧]

وفى موقع اخر يسقط درويش الأسطورة " العنقاء" علـــى الواقـــع الفلسطينى، فمن رماد العنقاء تولد عنقاء أخرى دلالة علـــى البعـــث والتجدد، كذلك الفلسطينى يتجدد بعد استشهاده وموتـــه. والمقصـــود أن الثورة تتجدد فالفلسطينى لا ينكسر حتى بعد خروجه من بيروت فهو يتجدد ويبعث من الرماد والدمار يقول محمـــود درويـــش فـــى قصيدة " فى مديح الظل العالى"

" وبيروت اختبار الله، جربناك جربناك
من أعطاك هذ اللغز؟ من سماك
من أعلاك فوق جراحنا ليراك
فاظهر مثل عنقاء الرماد من الدمار"[١٨]

الأسطورة الشعبية التراثية: يعتبر " السندباد " من اهم الأســـاطير التراثية حيث جاء ذكره فى كتاب " الف ليلة وليلة " ويقال أنه قاسى التعب والنصب من جراء سفراته ومعامراته الغريبة ألتى قام بهـــا وعددها سبع سفرات

وقد وظف شعراء العرب من مصريين ولبنانيين وعراقيين أسطورة سندباد كصلاح عبد الصـــبور،الذى يرمـــز خلالـــه الـــى رحلتـــه ومغامراته فى سبيل الابداع.[١٩]

أما محمود درويش فقد وظـــف أســـطورة ســـندباد كرمزللانســـان الفلسطينى المنفى المتجول فى الشتات.من مكان الى مكـــان ومـــن ميناء الى ميناء. الانسان الفلسطينى الذى يطمح فـــى العـــودة الـــى فردوسه المفقود. ففى هذالتجوال طموح.

وفى هذ الشعر حنين وشوق وأمل فى العودة الى بيتـــه ووطنـــه[٢٠]
يقول درويش فى قصيدة " المناديل "

"ما لوحت، الا ودم سال
فى أغوار واد
وبكى لصوت ما، حنين
وفى شراع السند باد
ردي سألتك، شهقة المنديل
مزمارا ينادى
فرحي بان القاك وعدا "[٢١]

يوظف درويش شخصية "شهرزاد " الأسطورية ليلقى بظلالها على فلسطين الواقع والحلم والقضية والثورة، فكلما اقترب الحلـــم تبـــدد وزال، فشهرزاد هى فلسطين يريد أن يرى ظلها. فيردها فى الواقع ليراها كالشجر، كالقمر يقول درويش فى قصيدة[٢٢] "خطوات فـــى الليل"

"لماذا يهرب الظل الذى يرسمنى
يا شهر زاد؟
والخطى تأتى ولا تدخل
كونى شجرا
كونى قمرا
لأرى ظلك
كونى خنجرا
لأرى ظلك فى ظلى

ورداً فى رماد"[٢٣]

يوظف شاعرنا الفلسطينى محمود درويش الأسطورة، بهدف تجسيد واقعه المأساوى، وتقصى أبعاده ليقدم الصورة الشعرية من خلال مساحة اكثر اتساعا وعمقا،واشد تعبيرا عن الواقع المعاش والتجربة الفلسطينية فالشاعر الفلسطينى محمود درويش من خلال توظيفه للأسطورة، يحاول أن يقدم واقعه اليومى.ولكن فى صورة أكثر وضوحا، فهو مثلا يريد أن يجسد صورة الظالم الطاغى المتمثل بالسلطة، مقابل صورة الكادح المستضعف الذى يعانى الصراعات الطبقية والاستبداد والاحتلال.

الهوامش:

١. عبد الحليم منصور، الملامح الأسطورية فى روايات الحوت، والقصر لطاهروطار، دراسة نقدية اسطورية، ص:٨

٢. المصدر نفسه

٣.الدكتور السعيد الورقى، لغة الشعر العربى الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الابداعية، دار النهضة العربية بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٤ ص:١٤١

٤. محمد حسين ابوالحسن، الشكل الروائى والتراث، الهيئة المصرية العامة لكتاب ٢٠١٢، ص:٣٥٦، الطبعة الاولى ٢٠١٢.

٥. سلمى خضراء الجيوشى. الشعر العربى المعاصر. ص:٥٢، نقلا عن لغة الشعرالعربى الحديث ص:١٤٢

٦. المصدر نفسه، ص:١٤٤

٧. المصدر نفسه، ص:١٤٤

٨. المصدر نفسه، ص:١٤٤

٩. د. السعيد الورقى.لغة الشعرالعربى الحديث، ص ١٤٤

١٠. محمد شاهين، الأدب والأسطورة، الموْسسة العربية لدراسات والنشر، الطبعة الاولى ١٩٦٦ بيروت، ص: ٨٨
١١. هوميروس الاوديسية. ترجمة أمين سلامة. دارالفكرالعربى، ١٩٧٤ ص:٢٣٥، الطبعة الثانية
١٢. د. رقية زيدان، اثر الفكر اليسارى فى الشعر الفلسطينى شعر محمود درويش، سميح القاسم، الطبعة الاولى ٢٠٠٩ الناشر، دارالهدى كفرقرع
١٣. محمود درويش، عاشق من فلسطين، دار الاداب بيروت، ص:٥٣ بدون التاريخ
١٤. د. رقية زيدان، اثر الفكراليسارى فى الشعرالفلسطينى، ص:٢٩٦
١٥. محمود درويش، عاشق من فلسطين، ص: ٥٣
١٦. مجلة اتحاد جامعات العربية للأداب، المجلد٩، العدد ٢ السنة ٢٠١٢ ص:١١٤٢
١٧. محمود درويش، الديوان، ص: ٢٦٩
١٨. فيصل درّاج، محمود درويش ورد أكثرمختارات شعرية ونثرية، الناشر وزارة الثقافة والفنون، دولة قطر، ص: ٥٦
١٩. د. رقية زيدان، اثرالفكر اليسارى. ص: ٣١٠
٢٠. المصدر نفسه، ص:٣١٠
٢١. المصدر نفسه، ص:٣١١
٢٢. المصدر نفسه، ص: ٣١١
٢٣. د. رقية زيدان. اثر الفكر اليسارى ص: ٢٨٩